الشعر الجاهلي والقيم الإنسانية

الشعر الجاهلى والقيم الانسانية

ان الشعر لجاهلى ليعد المرآة الواضحة التى تعكس لنا حياة الجاهليين وتصورها أصدق تصوير ، فشعر الجاهليين كما يقول ابن سلام : « ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم ، به يأخذون واليه يصيرون »(١) وهو كما يقول ابن فارس : « ديوان العرب وبه حفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحديث صحابته والتابعين »(٢) .

فالشعر الجاهلى وثيق الصلة بحياة هؤلاء القوم ، من خلاله نتعرف على عاداتهم وأخلاقهم وحروبهم ومجتمعاتهم ، فهو سجل تاريخى يحمل الينا أسماء بطولاتهم ، وشعوبهم وقبائلهم ، وأيامهم الشهيرة ، كما يبين لنا أدوات حروبهم وأسماء منازلهم ومياههم .

لقد أحاط الشعراء الجاهليون خبرا بكل شىء فى مجتمعهم ، فصوروا الحياة العربية فى ألوانها المختلفة،وجوانبها المتعددة ، ونواحيها المتشعبة من خير وشر وضر .

فالناظر فى الشعر الجاهلى ــ وان بدت لأول وهلة جفوة تلامس ظاهره ــ يجد فيه ألونا من الأحاسيس قوية ، وفنونا من العواطف دافقة ، يجد وجدانات مرهفة ، ومشاعر نابضة ، وصورا للطبيعة بما فيها من وضوح وسذاجة ، وتعبيرا عن الحياة الانسانية بما يضطرم فيها من حب وبغض ووصل وصد ، وقرب وبعد ، واقبال وادبار،ولذة

---

(١) المزهر للسيوطى ٤٧٣/٢ ط دار التراث .

(٢) المرجع نفسه ج ٢ ص ٤٧٠ .

وألم وفضيلة ورذيلة ، وابتسام وعبوس ، مثلـه فى ذلك مثـل الآداب الانسانية جميعا لا ينقص عنها ولا يتخلف عن مواكبتها(١) ، اذ ليس كل ما فى حياة القوم كان قتاما وعتاما ، أو سلبا ونهبا ، أو تسوده الفوضى وتغلب عليه أخلاق الجهالة وصفاتها الرذيلة لأنه ليس ثمة شك فى أنه كان يتخلل ذلك المجتمع ملامح أصيلة وضاءة من المكارم والمحامد ، والصفات الطيبة التى تحلى بها العربى ، والتى جاء الاسـلام فصقلها وهذبها ووجها الوجهة السديدة .

نعم « هناك شعراء فسقوا فى شـعرهم ونظروا الى المرأة نظـرة مادية رخيصة ، ولكن هؤلاء فى أدبنا أقـل من أمثالهم فى آداب الأمم الأخرى ، فلا ينبغى أن نحكم على التراث كله فى ضوء قراءة سـطحية لشاعر قد يكون ماجنا مظلم الحس معتم النفس ، وانما علينا أن نتريث وندرس ونفحص ، ثم يهدينا هذا التريث وهذا الفحص الى ما يشـاء من حق ، سواء كان هذا لهم أو كان قضاء عليهم »(٤) .

ان طبيعة الحياة التى عاشها عرب الجـاهلية أكسبتهم الكـرم والسخاء الذى يجعلهم يأتون عـلى ما يملكون ، وان ماتوا بعـد ذلك جوعا ومسغبة ومن ثم تمدحوا بالسخاء والجود وأشادو بالبذل والعطاء واشتهر من أجودهم وسمحاتهم كثـيرون كحاتم الطائى الذى ضرب بجوده المثل وهو القائل :

أما وى ان المال غـاد ورائـح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر(٥)

---

(٣) راجع : الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام ص ٢٠ د. عبدالحميد المسلوت ط زهران سنة ١٩٧١م .

(٤) قراءة فى الأدب القـديم ص ٢٩ د. محمـد أبو موسى ط دار الفكر العربى سنة ١٩٧٨م .

(٥) ديوان حاتم ص ٥٠ ط بيروت .

وقد غرست فيهم حياتهم بما فيها من كروفر ، واقبال وادبار ، وكفاح ونضـــال النجدة والشـــهامة ، والاسراع الى نصرة المظلـــوم ، وانصاف المهضوم ، والدفاع عن الجار وحمايته ، كما أكسبتهم حياتهم الصريحة آدابا قويمة ، وصفات كريمة • كقول عنترة :

وأغض طرفى ما بدت لى جـــارتى حتى يوارى جارتى مأواها(٦)

وكقـــــوله :

ولقد أبيت على الطـــوى واظله حتى أنال به كريم المأكل(٧)

فانظر بربك كيف تغلغلت هذه المعانى السامية فى أشعارهم •

ولنا قبل أن نعرض لتلك القيم الانسانية التى صورها الشـــعر الجـــاهلى أن نتبين المقيـــاس الانسانى الذى تقـــاس به هـــذه القيم الانسانية •

ان المقياس الانسانى يعنى به « أن يكون معنى الشعر مما يتفق مع الشعور الانسانى الرفيع ، ومما يتفق مع الطبيعة الانسانية السامية وربما دخل هذا المقياس مرة فى مقياس الدين والخلق،لأن الخلق الكريم سمة الانسانية الرفيعة ، وفى مقيـــاس الصحة والخطـــأ اذا اتفق مع الطبيعة الانسانية أو لم يتفق ••• »(٨) •

ومن أمثلة التطبيق على هذا المقياس ما روى من قـــول عبد الملك ابن مروان عند انشاده قول الشماخ فى عرابة بن أوس :

اذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فأشرقى بدم الوتين(٩)

---

(٦) شرح ديوان عنترة ص ١٥٤ ط بيروت •

(٧) شرح ديوان عنترة ص ٩٨ •

(٨) أسس النقد الأدبى عند العرب د• أحمد أحمد بدوى ص ٤١٤ ط دار نهضة مصر •

(٩) الوتين عرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه •

فقال : بئست المكافأة كافأها !! حملت رحله وبلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها(١٠) .

وقد نقد أبو نواس بيت الشماخ هذا ووازن بينه وبين قول الفرزدق مفضلا قول الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى
وخير الناس كلهم أمامى
متى ترد الرحافة تستريحى
من التهجير(١١) والدبر الدوامى(١٢)

فالتفضيل هنا راجع الى الطبيعة الانسانية التى تعرف حقائق النفوس « فبمقدار تعبير الشعر عن النفس الانسانية يعد الشعر رائعا قويا ، ويعد المعنى سليما لا عيب فيه ، أما اذا كانت النفس الانسانية لا يتفق ما تشعر به مع معنى الشعر فجدير بنا أن نعيب الشعر وأن نعد معانيه خطأ غير مقبول »(١٣) .

وهذا يجرنا الى التساؤل أهناك من المعانى ما هو شريف وما هو وضيع أم أن المعانى كلها متساوية ؟

للاجابة عن ذلك نقول : ان من أدبائنا المحدثين من ينكر تقسيم المعانى الى شريف ووضيع ويرى أنه تقسيم « غير مفهوم ولا مقبول، فالعهد بالمعانى انها لا توصف لذاتها بشرف ولا ضعة فكل منها فى

---

(١٠) الأغانى جـ ٩ ص ١٦٩ نسخة مصورة عن ط دار الكتب العربية .

(١١) التهجير : المشى فى الهاجرة والدبر – بفتحتين – جمع دبرة بفتحتين وهى قرحة الدابة .

(١٢) الأغانى جـ ٩ ص ١٦٩ .

(١٣) أسس النقد الأدبى ص ٤١٥ .

مكانه مطلوب ، حيث لا يغنى عنه غيره ، فالحاجة اليه ماسة فى ذلك المكان وهو فيه أصيل أصالة الآخر فى مكانه ، فلا تفاوت بينهما من هذه الجهة ، ومن أين يجىء التفاوت بينهما فى الشرف أو الخسة والأمر كما وصفنا من تفرد كل معنى بموضع واستئثار كل موضع بمعنى بحيث لا يصلح أحدهما الا لصاحبه » ، « والحق أن ما يسمونه خسة المعانى أو حقارتها ، أو ضآلة شأنها انما يجىء من وضعها فى غير موضعها ، وأحلالها محلا لم يخصص لها ، فليس العيب ذاتيا فيها وانما العيب من المتكلم الذى يفسد الوضع ويسىء الاختيار »(١٤) .

أما نقادنا القدامى فيرون أن من المعانى ما هو شريف ومنها ما هو وضيع وأن الشرف والضعة ذاتيان فى المعنى لا من وضع المعانى فى غير موضعها ، فقدامة بن جعفر يقسم المعنى الى رفيع ووضيع ، ويقرر ذلك فى قوله : « وعلى الشاعر اذا شرع فى أى معنى كان من الرفعة والضعة ، والرفاهة والنزاهة والبذخ والقناعة ، وغير ذلك من المعانى الحميدة ، أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك الى الغاية المطلوبة »(١٥) .

ويرى المرزبانى أن من المعانى ما هو تدل كقول امرى القيس :

لنا غنم نسوقها غزار
كأن قرون جلتها العصى
فنملأ بيتنا أقطا وسمنا
وحسبك من غنى شبع وري(١٦)

---

(١٤) المتنبى وشوقى ص ٦٧ أ. عباس حسن ط مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٥١م .

(١٥) نقد الشعر لقدامة ص ٦٥ ، ٦٦ ت د. محمد خفاجى ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٨٠م .

(١٦) الموشح للمرزبانى ص ٢٥ ط المطبعة السلفية الثانية سنة ١٣٨٥هـ .

ويروى صاحب الوساطة بعض شعر أبى نواس مما كان ساقط المعنى .

هذا والناظر فيما أورده أدباؤنا القدامى من أمثلة دالة على الشرف أو الخسة يتبين أن المعنى الشريف يطلق عندهم على ما كان خلقيا ، وما تناول الحديث عن الجماعة فصور نوازعها ورغباتها بحيث يشارك الشاعر جماعات كثيرة تتأثر بهذا المعنى،أما اذا كان المعنى فرديا لا يشارك الشاعر فيه أحد فهو معنى وضيع . يتضح هذا من وصفهم بالسخف شعر أبى نواس الذى يدل على انحرافات خلقية لا يقرها المجتمع المهذب ، ومن وصفهم بيتى امرىء القيس السابقين بالنذالة ، لأنهما يمثلان الرضا فى هذه الحياة بالشبع والرى ، وذلك ما لا يقره المثل الأعلى للانسان المثالى الذى يصوره قول امرى القيس أيضا :

فلو انما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل(١٧)
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى(١٨)

ومن وصفهم بالضعة أيضا قول بشار :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت(١٩)

أما المعانى الانسانية التى تحس بمثلها الجماعة وتشارك الشاعر فى ادراة جمالها فهى المعانى الشريفة الرفيعة(٢٠) .

---

(١٧) المؤثل : المؤجل .
(١٨) الموشح للمرزبانى ص ٢٥ .
(١٩) ديوان بشار جـ ١ ص ٩٧ جمع محمد بن عاشور .
(٢٠) انظر : أسس النقد الأدبى عند العرب د. أحمد أحمد بدوى ص ٤١٦ وما بعدها .

ولعل هذا هو السر فى أن نقـاد العرب يكادون يجمعون على أن الجدير بالاعتبار فيما يمتدح به من الفضـائل والمحاسـن « انما هى الفضائل الانسانية والمزايا النفسية ، أما الصـفات الجسمية والأمـور العرضية ، فلافضل للممدوح فيها وهى على أى حال الى تغير وزوال ، ومن الداعين الى هذا الرأى قدامة بن جعفر الذى يقول : « .. انه لما كانت فضائل الناس من حيث انهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفـاق فى ذلك ، انما هى العقـل ـ والشجاعة ـ والعدل ـ والعفة كان القاصد لمـدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا والمـادح بغيرها مخطئا .. وذلك هو العدل ثم قال :

والبالغ فى التجويد الى أقصى حدوده من اسـتوعبها ولم يقتصر على بعضها وذلك كما قال زهير بن أبى سلمى فى قصيدة :

أخى ثقة لا تهلك الخمـر ماله ولكنه قد يهلك المـال نائله

فوصـفه فى هذا البيت بالعفة لقلة امعانه فى اللذات وأنه لا ينفذ ماله فيها ، وبالسـخاء لاهـلاكه ماله فى النوال وانحـرافه الى ذلك عن اللذات وذلك هو العدل . ثم قال :

تراه اذا ما جئتـه متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فزاد فى وصـف السـخاء بأن جعله يهش له ولا يلحقـه مضض ولا تكره لفعله . ثم قال :

فمن مثل حصـن فى الحروب ومثله لانكار ضيم أو اخصـم مجادله

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل فاستوعب زهير فى أبياته هذا المويح بالأربع الخصال التى هى فضائل الانسان على الحقيقة ، وزاد فى ذلك ما هو ـ وان كان داخلا فى هذه الأربع ـ كثير

من الناس لا يعلم وجه دخوله فيها حيث قال ــ أخى ثقة ــ صفة له بالوفاء ، والوفاء داخل فى الفضائل التى قدمنا ذكرها .. »(٢١) .

ومن نماذج المديح الجيد الذى مثل به قدامة قول الأخطل :

صم عن الجهل عن قيل الخناخر
وان ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأوسع الناس أحلاما اذا غضبوا

ومن ذلك أيضا قول الحطيئة :

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها
وان غضبوا جاء الحفيظة والجد
أولئك قوم ان بنوا أحسنوا البنا
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعماء فيهم جزوا بها
وان أنعموا كدروها ولا كدوا (٢٢)

وقوله :

نزور امرأ يعطى على الحمد ماله
ومن يعط أثمان المكارم يحمد
يرى البخل لا يبقى على المرء ماله
ويعلم أن المال غير مخلد
متى تأته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد(٢٣)

---

(٢١) نقد الشعر ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢٢) المرجع نفسه ص ١٠٣ .
(٢٣) المرجع نفسه ص ١٠٥ .

وهذا وذاك من النماذج التى ذكرها قدامة قامت على تمجيد ما فى الممدوح من فضائل نفسية ترتضيها الطبيعة الانسانية ويقرها الذوق السليم •

هذا واذا كنا قد عرفنا المقياس الانسانى الذى تقاس به القيم الانسانية وأن من المعانى ما هو رفيع ومنها ما هو نذل فعلينا أن نستوضح صورا من تلك المعانى السامية التى مثلها الشعر العربى فى العصر الجاهلى ومنها :

الكرم وقرى الضيف :

حرص العربى على اكرام الضيف والاحتفال به ، وهذا الحرص سجية وطبيعة ولدتها طبيعة الحياة فى الصحراء الموحشة بما فيها من قسوة وجفاف ، ومن ثم اشتهر العرب بالكرم وحسن الضيافة ، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالصفحات التى تمجد العرب فى هذا الشأن ، ولا أدل على ذلك من أنهم كانوا يوقدون النيران ليلا ليراها الضيف ، ويهتدى بضوئها وهو يسير فى وسط الصحراء الموحشة فيجد عند موقديها القرى والدفء والأمان حتى ولو كان من أعدائهم ، ونظرا لتعود كلابهم لكثرة الأضياف فهى لا تنبح •

نرى تلك الصورة واضحة فى قول عوف بن الأحوص :

ومستنبح يخشى الفواء ودونه
من الليل بابا ظلمة وستورها(٢٤)
رفعت له نارى فلما اهتدى بها
زجرت كلابى أن يهر عقورها(٢٥)

---

(٢٤) مستنبح أى : ينبح حتى ترد عليه الكلاب ليهتدى الى حى من الأحياء ـ القواء : الفلاة •

(٢٥) يهر : ينبح نبحا خفيفا ـ العقور : العاصى •

فلا تســـأليني وأسألى عن خليقتى
اذا رد عافى القدر من يستعيرها(٢٦)
ترى أن قـــدرى لا تزال كأنهـــا
لذى الفروة المقرو أم يزورها(٢٧)
مبرزة لا يجعـــل الستر دونهـــا
اذا أخمد النيران لاح بشيرها(٢٨)
اذا الشول راحت(٢٩) ثم لم تغد لحمها
بألبانها ذاق الســـنان عقيرها(٣٠)

فهذه الصورة تريبنا أن القوم كانوا يوقدون النار لهداية الضـــيف وجلبه ، كما كانوا يوقدونها للحرب وقد أفاض الشعراء الجاهليون فى الحديث عن نار القرى هذه فها هو ذا الأعشى يقول فى مدح المحلق :

لعمرى لقـــد لاحت عيـــون كثيرة
الى ضـــــوء نار فى يفـــاع تحـــرق
تشـــب لمقـــرورين يصـــطليانها
وبات على النـــار الندى والمحلق(٣١)

والدلائل تشير الى أن القوم كانوا يسرون ويبشون فى وجـــوه أضيافهم ويسعدون بمن يأتيهم فها هو ذا عتبة بن بجير المازنى يصف سعادته لتلقيه تائه ساقته اليه المقادير سوقا فيقول :

---

(٢٦) عافى القدر : مستعيرها .
(٢٧) ذو الفروة : السائل ـ المقرور : الذى اشتد به البرد .
(٢٨) لاح بشيرها : ظهر ضوؤها .
(٢٩) الشول : الابل العظيمة التى لا تحلب ـ راحت : رجعت . أى اذا رجعت الابل من المرعى عقرها لأهل الحى والضيفان .
(٣٠) المفضـليات للضـبى ص ٧٨ ، ٧٩ شرح الســندوبى طبـع المطبعة الرحمانية .
(٣١) ديوان الأعشى ص ١٢٠ وما بعدها دار صادر بيروت .

ومســـتنبح بات الصـــدى يستتيه ه
الى كل صوت فهر فى الرحـــل جانح(٣٢)
فقلـــت لأهـــلى مـــا بغـــام مطيـــة
وســـار أضـــافته الكـــلاب النـــوابح
فقـــالوا غريب طـــارق طوحت بـــه
متون الغيافى والخطوب الطوارح(٣٣)
فقمت ولم الجســـم مكانى ولم تقـــم
مـــع النفس عـــلات الفواضـــح
وناديت شبلا فاســـتجاب وربمـــا
ضـــمنا قرى عشر لمن لا نصـــافح(٣٤)
فقـــام أبو ضيف (٣٥) كـــريم كأنه
وقد جـــد من فرط الفكـــاهة مـــازح
الى جـــزم مال قد نهكنـــا ســـوامه
وأعراضـــنا فيه بواق صـــحائح(٣٦)
جعلنـــاه دون الـــذم حتى كـــأنه
اذا عـــد مـــال المكثرين المنـــائح(٣٧)

---

(٣٢) جانح : مائل .
(٣٣) الطوارح : التى تطرح وترمى وتبعد .
(٣٤) أى عندنا من القـرى ما يقوم بالأضـياف الذين لا نعرفهم عشر ليال .
(٣٥) يريد نفسه .
(٣٦) الجزم : الأصل ـ والسوام : الابل الراعيـة : أى قمت الى الابل التى أفقدنا السوام منها في الضيافة لنقى عرضنا .
(٣٧) المنائح : جمع منيحة وهى الناقة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها وتشـمل بعض الثمـرات ذات الجدران الصـالحة للعرض : مدخل فاذا انقطع ردها : أى جعلنا هذا الأصل من المال وقاية بيننا وبين الذم

لنا حمد أرباب المئين ولا يرى
الى بيتنا مال مع الريح رائح(٣٨)

فالأبيات تصور قصة ضيف ضل ليلا فى فجاج الصحراء فلم يدر أين البيوت فنبح لتسمعه الكلاب أصواتها ، ولكن صدى صوت الكلاب أضله ، فلما سمع بجير رغاء ناقته وصوت كلاب الحى النابحة سأل أهله فلما أخبروه بأنه غريب طوحت به الصحراء والخطوب نهض بجير للقائه ونجدته ، ولم يختلق المعاذير التى تختلقها النفس الشحيحة ، ونادى ابنه شبلا فلبى نداءه لتأصل صفة الكرم فى طبعه ، وقام متهللا فنحر من نوقه الباقيات التى طالما نحروا منها ليصونوا أعراضهم .

ثم انه لا تفوتنا الاشارة الى أن القوم كانوا يعدون من الكرم أن تحديد العون للجار والقريب والمحتاجين من الأرامل ، واليتامى والمساكين ، ويتمدحون بذلك نتبين هذا قول لبيد بن ربيعة :

وجزور أيسار دعوت لحتفها
بمغالق متشابه أجسامها(٣٩)

أدعو بهن لعاقر أو مطفل
بذلت لجيران الجميع لحامها(٤٠)

فالضيف والجار الجنيب كأنما
هبطا تبالة مخصبا أهضامها(٤١)

---

(٣٨) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٤٩ لمحمود شكرى الألوسى ط الرحمانية .

(٣٩) جزور أيسار : جزور أصحاب الميسر ـ المغالق : سهام الميسر

(٤٠) العاقر : التى لا تلد . المطفل : التى معها ولدها .

(٤١) الجنيب : الغريب . تبالة : واد مخصب من أودية اليمن ـ الهضيم : المطمئن من الأرض .

تـــأوى الى الأطنـــــاب كـــل رذيـــــة
مثـــــل البلية قالص أهـــــدامها(٤٢)
ويكلـــــون اذا الريـــــاح تنـــــاوحت
خلجـــــا تمد شـــوارعا أيتامهـــا(٤٣)

فلبيد هنا يكشف لنا عن شخصية عربية أصيلة لا تدخر وسعا فى اختيار أكـــرم الذبائح وأنفســـها لينحرها لأضـــيافه ، فالجزور التى يختارها أصحاب الميسر من دون سائر الابل ليتراهنوا عليها هى التى لا تلد لأنها أسمن من غيرها .

هذا واذا كنا بسبيل الحديث عن كرم العربى فلا ننسى حاتم بن عبد الله ابن سعد الطائى الذى ضرب به المثل فى الكرم والجود حيث كان يكرم من يفد اليه حبا فى الكرم ويعطى الآخرين رغبة فى العطـــاء والجود وان مال الى الثنـــاء والذكر كما هو بين من قـــوله لزوجتـــه السابق الذكر :

أماوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

على أن أخبار حاتم فى الكرم والجود وقرى الأضياف من الشهرة بمكان ، فقد كان يؤثر المحتاجين على نفسه ولا يبالى بلوم زوجته اياه وربما زجرها قائلا :

مهـــــلا نوفر أقلى اللـــوم والعـــذلا
ولا تقـــــولى لشىء فـــات ما فعـــــلا

---

(٤٢) الأطناب : حبال البيت ــ الرذية : الناقة الهزيلة ــ البلية : الناقة التى تشد على قبر صاحبها حتى تموت ــ اقالص : القصـــير ــ الأهدام : الأثواب الخلقة .

(٤٣) تناوحت : تقابلت ــ الخلج : جمع خليج وهو النهر الصغير ــ الديوان ص ١٧٨ دار صادر بيروت ١٩٦٦م .

ولا تقولى لمال كنت مهلكه
مهلا وان كنت أعطى الانس والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة
ان الجواد يرى فى ماله سبيلا(٤٤)

وقد عبر حاتم عن ذات نفسه الخيرة منكرا على من يقف فى طريقه مفلسفا حبه للجود بأنه استجابة لطبيعة نفسه التى لا يمكن له أن يخالفها نرى هذا بينا فى مثل قوله :

وعاذلة قامت على تلومنى
كأنى اذا اعطيت مالى أضيمها
أعاذل ان الجود ليس بمهلكى
ولا مخلد النفس الشحيحة لوحها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه
مغيبة فى اللحد بال رميمها
ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه
يدعه ويغلبه على النفس خيمها(٤٥)

ومن ايثاره للمحتاجين على نفسه نرى مثل قوله :

أما والذى لا يعلم السر غيره
ويحيى العظام البيض وهى رميم
لقد كنت أختار القرى طاوى الحشا
محافظة من أن يقال لئيم(٤٦)

---

(٤٤) ديوان حاتم ص ٧٣ .
(٤٥) الخيم مثل ريم : يعنى الطبيعة والخلق .
(٤٦) الديوان ص ٨٦ .

ولاريب فى هذا هو الذى كان يأمر غلامه بايقاد النار فى جوف الصحراء ليالى الشتاء حينما يشتد البرد ، وتزداد صرصرة الريح ، ويعد غلامه يسارا بالعتق ان جذبت النار ضيفا فيقول :

أوقد فان الليل ليل قر
والريح يا واقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر
ان جلبت ضيفا فأنت حر(٤٧)

وعلى الجملة فقد كان بحق صفحة ناصعة تفيض بالكرم والجود حتى يسار كرمه مضرب الأمثال فى أدبنا العربى ، ولا عجب فى هذا اذ كان يدعو الى المشاركة فى أمواله ، ويؤثر المحتاجين على نفسه ، ويرى وجوب التعاون فيما بين الناس من الخيرات وأسباب الحياة ، ويعلن ذلك فى صراحة تامة فيقول :

وما أنا بالساعى لفضل زمامها
لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوى حقيبة رحلها
لأبعثها خفا وأترك صاحبى
وان كنت ربا للقلوص فلا تدع
رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فان حملتكما
فذاك وان كان العقاب فعاقب(٤٨)

ومن روائع شعر حاتم قوله :

---

(٤٧) نهاية الأرب للنويرى جـ ٣ ص ٢٠٨ والديوان ص ٥٩ .
(٤٨) ديوان حاتم ص ٢٩ ، ٣٠ .

اذا ما صـــنعت الزاد فالتمس لـــه
كيـــلا فانى لســـت آكلـــه وحـــدى
أخـــا طارقـــا أو جـــار بيت فاننى
أخاف مذ مات الأحـــاديث من بعـــدى
وانى لعبـــد الضـــيف مادام ثـــاويا
وما فى الا تلك من شـــيمة العبـــد(٤٩)

وكما صور الشعر الجاهلى كرم الكرماء وما اتصفوا به فانه كذلك سجل بخل البخلاء وعيرهم به • يقول الأعشى :

تبيتون فى المشى مـــلاء بطونكم وجاراتكم جوعى يبتن خمائصا(٥٠)

ويعير عروة بن الورد خصمه فيقول :

وانى امرؤ عافى انائى شركة وانت امرؤ عافى انائك واحد(٥١)

وهكذا نتبين كيف تأصلت صـــفة الكرم فى نفوس هؤلاء القـــوم الذين يؤثرون الغير على أنفسهم رغم فاقتهم وحاجتهم •

ولعل قصة الحطيئة مع ضيفه المسجلة فى قصيدته التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

لعل هذه القصيدة من أبلغ الأدلة على تأصل هذا الخلق المحمـــود عند العرب حيث صور الحطيئة فى قصيدته تلك أعرابيا معدما يعيش فى قفر من الأرض وقد نفذ زاده ، وبينما هو على هذه الحال البائســـة اذ بضيف طارق ، فما كان منـــه الا أن لبى نداء الكرم الأصـــيل فى نفسه ، ولما لم يجد شيئا يقدمه لضيفه هم بذبح ابنه ليقدمه له لولا

(٤٩) ديوان ص ٤٣ ، ٤٤ •
(٥٠) ديوان الأعشى ص ١٠٠ •
(٥١) ديوان عروة بن الورد والسموءل ص ٢٩ دار صادر بيروت •

أن حال بينه وبين ذلك ظفره بصيد كان لضيفه طعاما ، ولابنه فداء ولزوجه بشرى .

يقول الحطيئة عقب بيته السابق :

أخى جفوة فيه من الانس وحشة
يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
وأفرد فى شعب عجوزا ازاءها
ثلاثة أشباح تخالهم بهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة
ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما
رأى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما رأى ضيفا تشمرو اهتما
فقال هيا رباه ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه الليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبت اذ يحنى ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذى طرا
يظن لنا ما لا فيوسعنا ذما
فروى قليلا ثم أحجم برهة
وان هو لم يذبح فتاة فقدهما
فبينما هما عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
على أنه منها الى دمها أظمأ
فأملها حتى تروت عطاشها
فأرسل منها فى كنانته سهما

فخـــرت نحـــوص ذات جحش ســـمينة
قـــد اكتنزت لحما وقد طبقت شـــحما
فيا بشـــره اذ جرهـــا نحو قومـــه
ويا بشرهم لمـــا رأوا كلمهـــا يدمى
وباتوا كرامـــا قد قضوا حـــق ضيفهم
وما غرموا غرما وقد غنمـــوا غنمـــا
وبات أبـــوهم مـــن بشـــاشته أبـــا
لضـــيفهم والأم من بشرها أما(٥٢)

انها قصة رجل فقير أصابته الفاقة ، وأخرجـــه الضيق من بلاده فاتجـــه الى شعاب الجبـــال حيث لا أنيس ولا جليس ، وهنـــاك أنزل الأعرابى أسرته التى تتكون من امرأته العجـــوز وأطفاله الثلاثة الذين أماتهم الجوع ، وبدى عليهم الضعف والهزال ، حتى ان الرائى يخالهم حملانا صغيرة عجفاء ، وقد برزوا فى أسوأ حال ، فهم حفاة عراة قد خلت بطونهم من الطعام بل ولم يذوقوا للخبز المصنوع من القمر أى طعم منذ خلقوا .

وبينمـــا الأعرابى على حالتـــه تلك اذ بشـــبح يلوح فى الظـــلام فيضطرب ويخاف ، ولكنه لما أحال النظر ورأى أن الشبح ضيف قادم تهيأ له واستعد للقائه ، وراح يهتف من أعماقه :

فقال : هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه الليلة اللحما

ولما رأى الابن أباه فى حـــيرة شديدة أسرع اليـــه قائلا : يا أبت لا تستبد بك الحيرة ويسر الطعام لضيفك ولو كان ذلك بذبحى ، حتى تقوم بواجب الكرم نحو ضيفك ، وحذار أن تعتذر بالفقر أو الفاقة ،

---

(٥٢) الديوان ص ٢٠ .

فليس هذا عذرا للكريم لأنه ربما ظن ذلك الضيف انك تملك من الأموال والغنم ... ولكنك حرمته حق الضيافة فيبالغ فى لومك ، ويضاعف من ذمك .

وأمام هذا الأمر وقف الأب متحيرا ماذا يصنع ؟ ولكنه ما لبث أن لبى نداء الكرم والغيام بحق ضيفه ، فهم بذبح ابنه لولا أن رأى — من بعد قطيعا من حمر الوحش يسير وراء حمار وحشى كبير متجها نحو الماء لشدة ظمأ ذلك القطيع وعطشه وان كان الأعرابى فى ظمأ أشد ، ولكن الى الظفر بصيد من القطيع ، ومع هذا غلبت الرحمة عليه فأمهل القطيع حتى ارتوى من الماء ثم رمى بسهم من كنانته فأصاب هدفه وحقق طلبته حيث تمكن السهم من أتانة سمينة قد امتلأت لحما وطبقت شحما ، وعندئذ علا البشر وجوه قومه حينما رأوا الأتان مضرجة بدمائها ، خائرة قواها لقدرتهم على القيام بواجب الكرم نحو ضيفهم الطارق، ومن هنا أخذ الرجل يحيط ضيفه بزائد الود وخالص البشر، وكذلك كانت امرأته وباتت الأسرة قريرة العين لوفائها بحق ضيفها ، وقيامها بواجب الكرم نحو من نزل بساحتهم ، لأن الكرم سجية فيهم فهو صادر عن طبيعتهم الخيرة ونفسيتهم الأبية التى تأبى الضيم ، وتنزع الى الرفعة والسمو .

حرب العشيرة والحض على الابناء :

واذا كان العربى فى العصر الجاهلى عاش حياته عاديا على غيره أو معدوا عليه فانه مع هذا كان محبا لعشيرته ، حريصا على توثيق الوشائج بين ذوى رحمه ، ومن ثم كره اليه ذم عشيرته ، أو ملاحاتها مهما لقى منها من تقصير فى نصرته ، أو نيل من شخصه فى غيبته،نرى ذلك بينا فى قول المقنع الكندى :

لا أحمل الحقد القديم عليهم

وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

وليســـوا الى نصرى سراعـا وان هم
دعـونى الى نصـــر أتيتهم شـــدا
اذا أكلوا لحمى وفـــرت لحـــومهم
وان هدموا مجـــدى بنيت لهم مجـدا
يعـيرنى بالدين قـــومى وانمـــا
ديونى فى أشـــياء تكسبهم حمدا(٥٣)

ومن الصور الدالة على ما كان عليه ذلك المجتمع من حب للعشيرة تلك الحادثة التى تهتز لها النفس الانسانية اعجابا ، فقد روى أن أعرابيا فوجىء بأن أخاه قد قتل ابنا له ، فما كان منه الا أن أطرق برأسه مفكرا حزينا ثم أنشأ وهو يئن من هـول فجيعته فى ابنـه ، ونفاقمها لو ثأر من أخيه :

أقـــول للنفس تأســـاء وتعـــزية
احـــدى يدى أصـــابتنى لم ترد
كلاهمـا خلف من فقـــد صـــاحبه
هذا أخى حـين أدعوه وذا ولدى(٥٤)

وهذه صورة أخرى تدلنا على تلك المشاعر الانسانية النابضـة بحب الأهل والعشـيرة ، فقد روى أن قيس بن عاصـم المنقرى كان جالسا ذات يوم يحدث أصحابه ، وبينما هو كذلك اذ بقوم يدخلون عليه بابن له قتيل ، وابن عم له كتيف قائلين ان هذا قتل ابنك هذا ، فالتفت قيس قائلا :

أين ابنى فلان فجاءه فقال : يا بنى قم الى ابن عمك فأطلقه والى

---

(٥٣) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٤٣ ت محمد شاكر ط دارالتراث
(٥٤) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ٦٦ مطبعة السعادة ط ٢ .

أخيك فادفنه ، والى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو عنه ثم اتكأ على شقه الأيسر فأنشأ يقول :

انى امـــرؤ لا يَعتـــرى خلقى
دنـــس يفنـــده ولا أفـــن
من منقـــر فى بيـــت مكرمـــة
والغصن ينبت حـــوله الغصن(٥٥)

تعم قـــد يكون الداعى الى حب العشـــيرة والحرص على حسن الصلة بين أبنائها دافعة تلك الحياة التى كان يعيشها هؤلاء القـــوم ، والتى تتطلب العصبية والكثرة ، لأنهم كانوا يتصورون أن العـــزة فى الكثرة والذلة فى القلة كما صور ذلك شاعرهم الأجرد حيث يقول :

من كان ذا عضـــــد يـــدرك ظلامتـــه
ان الذليـــل الذى ليســـت لـــه عضـــد
تنبـــو يـــداه اذا ما قـــل ناصـــره
ويمنع الضـــيم ان أثرى له عـــدد(٥٦)

ولكن مهما كان السبب أو الدافع فان حب العشيرة وخفض جناح الرحمة للأهل من الأمور الحميدة التى أوصى بها الدين فيما بعـــد ، ووجه اليها اتوجيها حسنا •

أما حب الأبناء والحنـــو عليهم فتلك طبيعة عامـــة بين البشرية جمعاء لا يتخلف عنها انسان ، فلاريب أن انشراح الصدر برؤية الأبناء والخشية عليهم من أحداث الزمان،وما ماثل ذلك من الأمور التى يشعر بها كل انسان وتحسها كل نفس •

يصور لنا تلك المعانى النبيلة حطان بن المعلى فيقول :

---

(٥٥) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٠٢ •
(٥٦) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٣٨ •

أنزلنى الدهـــر على حكمـــه
من شـــامخ عـــال الى خفض
وغـــالنى الدهر بوفـــر الغنى
فليس لى من مـــال ســـوى عرضى
أبكـــيانى الدهـــر ويا ربمـــا
أضـــحكنى الدهـــر بما يرضى
لولا بنيـــات كزغـــب القطـــا
ردن مـــن بعض الـــى بعض
لكـــان لى مضـــطرب واســـع
فى ارض ذات اطلـــول والعـــرض
وانمـــا أولادنـــا بيننـــا
أكبـــادنا تمشـــى عـــلى الأرض
لوهبت الريـــح على بعضـــهم
لامتنعت عينى عـــن الغمض(٥٧)

وهذا نموذج آخر يتدفق بمشاعر الأبوة الحـــانية نحو الأبنـــاء الكبار الذين اشتد عودهم وأصبحوا أهلا لتحمـــل المسائل العويصات خاصة بعد كبر الآباء نتبين تلك المشاعر من هذه الأبيات التى فاضت بها قريحة الشاعر الجاهلى حينما رأى ابنه ــ رباطا ــ قد تم شبابه فأنشأ يقول واصفا ابنه بالبر والشجاعة والكرم :

رأيت ــ رباطا ــ حـــين تم شـــبابه
وولـــى شـــبابى ليس فى بـــره عتـــب
اذا كـــان أولاد الرجـــال حـــزازة
فأنت الحـــلال الحلو والبارد العـــذب

---

(٥٧) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

لنـــا جانب منـــه دميث وجـــانب
اذا رامـــه الأعـــداء ممتنـــع صعب

وتأخـــذه عنـــد المكـــارم هـــزة
كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب(٥٨)

وهكذا نجد مثل هذه النماذج الدالة على حب العشـــيرة والحنو على الأبناء عند هؤلاء القوم ، وان وقع من بعضهم ما يخالف ذلك وقع وهم له كارهون لأن جمهرة القوم كانوا رحيمين على توثيق وشائج الرحم ، والترابط بين أبناء القبيلة ، والحفاظ على العشيرة ، ومن ثم كان الشعراء يلتمسون الأعـــذار لأقوامهم اذا ما حاربوا عشـــيرة من أقاربهم فيقول :

بكـــره سراتنـــا يا آل عمـــرو
نغـــاديكم بمهفـــة ثقـــال

نعديهن يـــوم الروع عنكـــم
وان كانت مثلمـــة النصـــال

لهـــا لون من الهـــامات كـــاب
وان كانت تحـــادث بالصـــقال

ونبكى حـــين نقتلكـــم عليـــكم
ونقتلكم كـــأنا لا نبـــالى (٥٩)

ـ العفة ومراعاة حق الجوار :

ومن الصفات الحميدة التى حرص العربى فى العصر الجاهلى على التحلى بها والتى جاء الاسلام فأقرها ودعا اليها العفـــة ، ورعاية حق الجوار ، وقد سجل الشعر الجاهلى هذه الصفات ، ومن تسجيله لعفتهم قول عنترة العبسى :

---

(٥٨) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ٩٥ .
(٥٩) حماسة أبى تمام جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .

ما اســـتمت أنثـــى نفســـها فى موطن
حتى أوفـــى مهرهـــا مولاهـــا
أغشى فتـــاة الحى عنـــد حليلهـــا
واذا غـــزى فى الجيش لا أغشـــاها
وأغض طـــرفى ان بدت لى جـــارتى
حتى يوارى جـــارتى مـــأواها(٦٠)

وقد وصف النابغة ممدوحيه بطيب الحجزات وهى ما يشد على الوسط كناية عن عفتهم فقال :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب(٦١)

ويدعو نهشل بن حرى التميمى الى حفظ عرض جاره فيقول :

اذا كنت جـــارا لا مرىء فارهب الخنـــا
على عرضـــه ان الخنـــا طرف الغـــدر
وذد عن حماه ما عقـــدت حبـــاله
بحبلك واستره بمالك من ســـتر(٦٢)

ويمجد حســـان بن ثابت صيانة العـــرض ويظهر قيمتـــه التى لا تعلوها قيمة فيقول :

أصـــون عرضى بمـــا لى أدنســـه
لا بـــارك الله بعـــد العـــرض فى المـــال
أحتـــال للمـــال ان أودى فأكســـبه
ولست للعرض ان أودى بمحتـــال(٦٣)

---

(٦٠) ديوان عنترة بن شداد ص ١٥٤ .
(٦١) ديوان النابغة ص ١٢ المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت
(٦٢) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٤٩٦ .
(٦٣) ديوان حسان ص ١٩٠ .

ـ الوفاء واغاثة الملهوف :

ومن القيم الانسانية النبيلة التى تحلى بها العبرى الوفاء واغاثة الملهوف ، اذ جعلوا ذلك من أعمال البطولة ، والفروسية التى اشتهروا بها ، والتى لم تقف عند جانب معين من جوانب الحياة التى عاشها هؤلاء القوم •

نعم فالوفاء ضرورة من ضرورات الحياة حتمتها طبيعة البيئة الشحيحة بخيرها ، والتى فرضت عليهم الوفاء بعقود الصلح التى كانوا يعقدونها عقب انتهاء الحرب ة اذ كان القوم فى حاجة الى الأمن وهم يجوبون الصحراء طلبا للرزق ، حتى لا يفاجؤا بعد بها جمعهم ، أو يغدر بهم ، ومن ثم كانوا يجزعون أشد الجزع اذا رأوا جارا ينكث بعهد جاره ويعدون ذلك عارا وشنارا (٦٤) •

ولعل ذلك هو الذى جعل الشعراء يفخرون بالوفاء وينفون عن أقوامهم الغدر ، فهذا الحادرة ينفى عن نفسه وعن قومه الغدر ويفخر بأنهم قوم أوفياء فيقول :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة
رفع اللواء لنا بها فى مجمع
انا نعف فلا نريب حليفنا
ونكف شح نفوسنا فى المطمع(٦٥)

ومن تصوير الشعر الجاهلى للوفاء قول السموءل فى وفائه لامرئ القيس وعدم تسليم دروعه لعدوه وايثاره ذلك على قتل ابنه :

---

(٦٤) راجع : الصراع بين الانسان والطبيعة فى الشعر الجاهلى للدكتور محمد محمد الكومى ص ١٣١ •

(٦٥) المفضليات ص ٩٠ شرح الشنتوبى ط الرحمانية بمصر •

وفيت بذمة الكندى انى اذا ما ذم أقوام وفيت

وذلك « أن امرىء القيس الكندى لما أراد المضي الى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة ، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة ليطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل ، فقال السموأل لا أدفعها الا لمستحقها وأبى أن يدفع اليه منها شيئا ، فعاوده فأبى وقال لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتى ولا أترك الوفاء الواجب على ، فقصد ذلك الملك به كندة بعسكره ، فدخل السموأل فى حصنه خارج الحصن ، فظفر به الملك فأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن بالسموأل فأشرف عليه من أعلى الحصن فلما رآه قال له : ان ولدك قد أسرته وها هو معنى،فان سلمت الى الدروع والسلاح التى لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت اليك ولدك وان امتنعت عن ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت ، فقال له السموأل ما كنت لأخفر زمامى وأبطل وفائى فاصنع ما شئت ، فذبح ولده وهو ينظر ، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا ، واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه،فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلم اليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب اليه من حياة ولده وبقائه ، فصارت الأمثال فى الوفاء تضرب السموءل ... »(٦٩) .

اما اغاثة الملهوف فيكفى أن نشير الى أن طرفة بن العبد جعل منها ومن بذل العون أحد أهدافه الثلاثة التى لولاها لما كان للوجود قيمة فى ذاته يتضح هذا فى قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وحقك لم أحفل متى قام عودى

---

(٦٦) المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ج ١ ص ١٧١ ط ١ مطبعة التقدم العلمية ١٣٢٠هـ .

فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى اذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نبهتة المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد(٦٧)

ومن هنا كان الشعراء يتمدحون بحماية الضعيف وتلبية دعوة المكروبين :

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين ينده بهم
فى النائبات على ما قال برهانا(٦٨)

وحول هذا المعنى يقول وداك المازنى :

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بأى مكان (٦٩)

ويصور الحطيئة هذه المثل العليا وتلك القيم النبيلة فيقول :

وفتيان صدق من عدى عليهم
صفائح بصرى علقت بالعوانق
اذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم
ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق

---

(٦٧) ديوان طرفة ص ٣٢ ، ٣٣ .
(٦٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٩ .
(٦٩) المرجع نفسه ج ١ ص ١٣٠ .

وطاروا الى الجـرد العتـاق فألجموا
وشـــدوا على أوســاطهم بالمنـاطق
أولئك آباء الغـــريب وغـــاثة المصـ
ريـخ ومـــأوى المرملـين الدراق
أحلـوا حيـاض المجد فـوق جباههم
مكـان النواصى من وجوه السوابق(٧٠)

ـ الدوة الى السلم وحقن الدماء :

برغم ما اشـتهر به الجاهليون من حـرب وصراع وويلات وحب للغزو والانتقام ودعوة للأخـذ بالثأر برغم هذا كله كان هنـاك أناس عقلاء يدعون الناس الى السلم ، وحقن الدماء .

وفارس ذلك الميدان بحق هو زهير بن أبى سلمى القائل وهو ينفر من الحرب وويلاتها ، وما تجره على القـوم من خراب ودمار وقضـاء على الأخضر واليابس :

وما الحـــرب الا ما علمتم وذقتـــم
وما هو عنهـــا بالحـديث المرجـم
متـــى تبعثـــوها ذميمـــة
وتضـــر اذا أضريتموهـــا فتضـــرم
فتعـــرككم عـرك الرحى بثقـــالها
وتلقـح كشـافا ثم تحمـــل فتتئم
فتنتـج لكم غلمـــان أشـــأم كلهم
كأحمـر عـاد ثم ترضع فتفطم(٧١)

---

(٧٠) ديوانه ص ١١٨ .
(٧١) أشـعار الشـعراء السـتة الجاهليين جـ ١ ص ٢٨٣ اختيار الشنتمرى منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت .

وعلى الجملة وحتى لا يطـول بنا الأمد أو تتفرع منـا جوانب الموضوع وحتى يتواءم المقال مع مقام المجلة التى تتطلب الايجاز فى القول مع الوفاء بالغرض ، فان الشعر الجاهلى قد احتوى على نماذج عالية تمثل القيم الانسانية النبيلـة ، والمثل العليـا الرفيعة من مثـل ما رأينا ومن مثل ما نرى فى معلقة لبيد التى يفخر فيها بقومه،ويعرب لنا عن مجموعة من الفضائل التى تمثل الخلق العربى الأصيل ، القـادر على مواجهة الحياة بكل ألوانها ، وتقسـيم الحقوق بين أفراد القبيلة ، بل ورد الحقوق الى أربابها واعانة القوم على الكرم بما يضربه من مثل عالية فى التضحية والوفاء .

يقول لبيد فى معلقته :

أنا اذا التقـت المجـامع لم يـزل
منـا لزاز (٧٢) عظيمـة جسـامها
ومقسـم يعطى العشـيرة حقهـا
ومغذ مر(٧٣) لحقوقهـا هضـامها(٧٤)
فضـلا وذو كرم يعين على النـدى
سـمح كسوب رغائب (٧٥) غنـامها
من معشـر سـنت لهم آباؤهـم
ولكـل قـوم سـنة واما مهـا
لا يطبعـون ولا يبـور فعـالهم
اذ لا يميـل مع الهـوى أحلامها(٧٦)

---

(٧٢) لزاز رجل لزاز الخصوم يقرن بهم ليقهرهم .
(٧٣) الغذمرة : الغضب مع همهمة .
(٧٤) الهضم : الكسر والظلم .
(٧٥) الندى : الجود ـ الرغائب : ما رغب فيه من الخصال الشريفة
(٧٦) لا يطبعون : لا تفسد طبلعهم ولا تدنس أعراضهم .

فبنى لنـــا بيتـــا رفيعا ســـمكه
فســـما اليـــه كهلهـا وغلامهـا
فاقنـــع بما قســـم المليك فانمـــا
قســـم الخلائق بيننـــا علامهـا
واذ الأمـانة قســـمت فى معشـــر
أوفـى بأوفـــر حظنـــا قســـامها
وهم السعادة اذا العشيرة أفظعت(٦٧)
وهـم فوارســـها وهـم حكـــامها
وهـم ربيـــع للمجلـــور فيهـم
والمرملات(٧٨) اذا تطـاول عامها(٧٩)
وهم لعشـــيرة أن يبطىء حاســـد
وأن يميـل مـع العـدو لئامهـا(٨٠)

ان الناظر فى هذه القصيدة يتبين أن من هؤلاء القـوم الجاهليين من كان سمحا فى طباعة راغبا فى كسب المعالى واغتنامها ، محافظا على التقاليد الأصيلة الموروثة عن القبيلة ، متأبيا على الدنايا متحاشيا كل ما يلطخ العرض ويدنسه مؤديا للأمانة ، ساعيا فى الخير دافعا الأذى عن قومه ما استطاع الى ذلك سبيلا كريما كالربيع عونا للجار وغيـاثا للمحتاج وفيا للعشيرة متفانيا فى الانتصار لها والوقوف بجانبها(٨١) .

انها صورة صادقة للصفات النبيلة التى تحلى بها العربى تكشف لنا روح الجماعة ومثلها العليا التى مكنت الانسان فى تلك المـدة من

---

(٧٧) أفظعت : أصيبت بأمر فظيع .
(٧٨) المرملات : اللواتى لا أزواج لهن .
(٧٩) تطاول عامها كناية عن سوء الحال .
(٨٠) الديوان ص ١٧٩ – ١٨٠ .
(٨١) انظر : الصراع بين الانسان والطبيعـة فى الشـعر الجاهلى د. محمد محمد الكومى ص ٣٤ وما بعدها .

السمو عن الواقع والتعالى عليه والوقوف الى جانب المثل العليا والدعوة لها والعمل على تحقيقا •

وبعد :

فلعل البحث بهذه الصورة يكون قد ألقى ضوء كاشفا عن تمثيل الشعر الجاهلى للقيم الانسانية لأن الموضوع فى حاجة الى بسط واطالة، ولا يمكننا الوفاء به كاملا فى هذا البحث الوجيز المقتضب وانا لنسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيأ لنا السبيل العودة اليه فى بحث آخر يتناول كل جوانبه خدمة لتراثنا الأدبى الخالد الذى يحتاج منا الى نظرات متأنية لنتبين ما فيه من قيم أدبية سامية •

دكتور / محمود عبد الرحيم محمد فراج
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة
العربية بأسيوط